يوسف اليوسف ناقدًا

إبراهيم خليل*

ولد يوسف اليوسف فيما يذكر أحد رفاقه في لوبية بتاريخ 17 تشرين الثَّاني من عام 1937[1]، على الرَّغم من أنَّ أكثر الَّذين كتبوا عنه وترجموا له بعد وفاته، ذكروا أنَّ ولادته كانت في قرية لوبية سنة 1938. وأمَّا قرية لوبية فتقع على بعد 13 كم من طبريَّة في الاتِّجاه المؤدِّي لمدينة النَّاصرة. وكانت حتَّى العام 1948 – فيما تذكره الموسوعة الفلسطينيَّة-بلدة زراعيَّة تعجُّ بالأراضي المحيطة بها كروم العنب والدَّوالي والزَّيتون. وعلى مقربة من تلال البلدة يجري "وادي العين" الَّذي تتدفَّق فيه المياه شتاءً، ويجفُّ في فصل الصَّيف. وقد تزايد العمران فيها قبل النَّكبة، واتَّسعت لتشمل حيًّا جديدًا هو حي (المدَّان)، أمَّا القرى الَّتي تحيط بلوبية فأهمُّها قرية الشَّجرة (وهي مسقط رأس الشَّهيد ناجي العلي)، وهي الَّتي استشهد فيها الشَّاعر عبد الرَّحيم محمود سنة 1948. وقرية حطِّين، الَّتي يقع فيها قبر النَّبي شعيب على ذمَّة الرُّواة. وقرية طرعان الَّتي ما تزال إلى أيَّامنا هٰذه قرية عامرة لم تقم الجرَّافات الإسرائيليَّة بتدميرها ومحوها من الخرائط، على نحو ما فعلت بقرية لوبية.

وقد ورد ذكر لوبية في الشِّعر العربي القديم، قال أحد الأندلسيِّين في مدحة أثنى فيها على صلاح الدِّين وانتصاره على الفرنجة في معركة حطِّين:

أما رأيْتُمْ فتوحَ القادِسيَّة في   أكناف لوبيّةٍ تُجْلى، وَذا عَمْرُو[2]

وفي فصل من ذاكرته "تلك الأيَّام" يذكر اليوسف اسم أحد أجداده، وهو حسين محمود، الَّذي كان حيًّا حتَّى عام 1799 وهو العام الَّذي بلغت فيه جحافل نابليون

---

* باحث ومحاضر في الجامعة الأردنية ، عمان – الأردن.

1 - أبو شاور، عرب 48، تاريخ النَّشر 10 حزيران 2013.

2 - اليوسف، سامي، تلك الأيَّام، كنعان للنَّشر، دمشق، ط1،2005 جـ1 ص25-56.

بونابرت أسوار عكَّا، وفرض عليها حصاره من البرِّ والبحر. ولٰكنَّ المدينة أفلتت من ذاك الحصار. وأمَّا جدُّ جدِّهِ لأبيه، فقد ولد فيما يذكر سنة 1850 واسمه عبد الرَّازق حسين محمود، وقد توفِّي في حادث غامض سنة 1931 تاركًا عددًا من الأبناء منهم سليمان، وجدُّه لأبيه يوسف، الَّذي كان قد رزق ببكره سامي الَّذي تزوَّج بدوره في العام 1936، أي في أثناء ثورة 1936. وفي العام 1938 رُزق بابنه البكر وقد سمَّاه يوسُفَ. فيوسف سامي اليوسف -النَّاقد الأدبي -ولد في ذٰلك العام، مثلما جاء في سيرته خلافًا لما ذكره أبو شاور من أنَّ ميلاده كان في 17 تشرين الثَّاني من العام 1937، وذٰلك ما ينفيه محرِّر صحيفة النُّور الدِّمشقيَّة مؤكِّدًا أنَّ ميلاده كان في 11/17/ 1938 وليس 1937، ولم يكدْ يمْضي على ميلاده شهران حتَّى أصيبت أمُّه بما يمنعها من إرضاعه على عادة الأمَّهات، فنشأ بسبب ذٰلك ضعيف البنية، هشًّا لا يستطيع جسمه مقاومة الآفات الطَّارئة الَّتي يتعرَّض لها الأطفالُ عادة. وقد ظلَّ على هٰذه الحال حتَّى بلغ أيَّامه الأخيرة، فعلى الرَّغم من تمتُّعه بطول القامة (182سم) إلَّا أنَّ وزنه لم يتجاوز الـ 60 كيلوغرامًا، وهو على الدَّوام من ذٰلك الحين زبونٌ دائم للأطبَّاء.[1]

ويقال إنَّ أسرة اليوسف بعد النَّكبة، وسقوط القرية بأيدي الاحتلاليِّين، نزحت إلى الجنوب اللُّبناني، وتنقَّلت في مواضع شتَّى قبل أن تستقرَّ في مخيَّم نهر البارد القريب من طرابلس لبنان. وفي ذٰلك المُخيَّم استأنف دراسته في المدرسة التَّابعة لوكالة الغوث. وفي العام 1956 انتقلتْ الأسرة ثانية إلى دمشق، ولجأت إلى مخيَّم اليرموك. واستقرَّ في سكن متواضع بشارع الجاعونة[2] ثمَّ في شارع لوبية. ويذكر رشاد أبو شاور أنَّ ضبَّاطًا سوريِّين منهم هيثم الأيُّوبي، وأكرم الدِّيري، نظَّما فصيلًا فدائيًّا

[1] - تلك الأيَّام، ص 65-68.

[2] - صبحي الحديدي، يوسف اليوسف يخضور فلسطين، القدس العربي، 6 مايو – أيَّار 2013.

في ذلك الحين، فما كان من يوسف اليوسف إلّا أن انتسب إليه، غير أنّه تابع دراسته في بعلبك، ودمشق، إلى أن ظفر بشهادة البكالوريا الّتي تؤهّله للالتحاق بالجامعة. ودرس اللُّغة والأدب الإنجليزي في جامعة دمشق، وتخرَّج ظافرًا بالإجازة الجامعيَّة الأولى سنة 1965 ونال الدِّبلوم سنة 1967. ولدراسته هٰذه فضل كبير على مساره الأدبيِّ، والنَّقدي، والثَّقافي، وتشهد على ذلك ترجماته الَّتي أشاد ببعضها ونوَّه إليها عبد الواحد لؤلؤة، مؤكِّدًا أنَّ ترجمة اليوسف لقصيدة إليوت الموسومة بالعنوان الأرض اليباب The Waste Land (1975) تفوق من حيث الدِّقَّة ترجمات أدونيس ويوسف الخال، وفائق متَّى، ولويس عوض. وممَّا يرتقي بترجمته عن ترجمات السَّابقين التَّمهيد بترجمة دراسة البروفسور روبرت. ب. كابلان عن تلك القصيدة[1]. أمَّا اقتباساته الكثيرة عن المصادر الإنجليزيَّة الَّتي نقف عليها، وعلى أثرها في دراساته، ومؤلَّفاته، فتؤكِّد مدى الانتفاع من إتقانه تلك اللُّغة[2]

وقد أضاف لدراسته هٰذه زيارة إلى لندن قضى فيها بضعة أشهر باحثًا في كمبردج. وهٰذا ما أضاف لعلاقته بالأدب الإنجليزي عمقًا على عمق.

ويُظنُّ أنَّ المقالة الأولى الَّتي كتبها اليوسف كانت عن شعر الشَّاعرة فدوى طوقان، نشرت على الأرجح في مجلَّة الآداب في بيروت[3] على أنَّ الأنظار لم تلتفت إليه بصفة عامَّة إلَّا بعد صدور كتابه "مقالات في الشِّعر الجاهلي" عام 1971. وقد كتب يوسف اليوسف في مجالات تدعو لإدراجه في مقام الدَّارسين الموسوعيِّين. فأبدى انشغالًا في الشِّعر قديمه ومعاصره، وفي القصَّة، والرِّواية، والسِّيرة، وفي الأدب القديم نثره

[1] - عبد الواحد لؤلؤة، الأرض اليباب الشَّاعر والقصيدة، ط3، مكتبة التَّحرير: بغداد، 1986، ص 78.

[2] - اليوسف: الخيال والحرِّيَّة. ص 36-37.

[3] - رشاد أبو شاور: م. س.

وشعره، وفي التَّاريخ، وفي التَّرجمة عن الإنجليزيَّة، فكانت مؤلَّفاته تعبيرًا دقيقًا وثريًّا عن هٰذا التَّنوُّع، وعن التَّحوُّلات اللَّافتة في مشروعه الأدبي والَّنقدي. وقبل المضيِّ في الحديث عن أبرز آرائه النَّقديَّة لا بدَّ من ذكر مؤلَّفاته المنشورة:

1. مقالاتٌ في الشِّعر الجاهلي، دراسة، ط1، الجزائر 1971، ط2، دمشق 1975.
2. الغزل العذري- دراسة، ط1، اتِّحاد الكتَّاب العرب: دمشق 1978.
3. بحوث في المعلَّقات- دراسة، دمشق 1978.
4. الشِّعر العربي المعاصر- دراسة، دمشق 1980.
5. ما الشِّعر العظيم؟ - دراسة، دمشق 1981 .
6. رعشة المأساة "- دراسة عن غسَّان كنفاني، ط1، عمَّان: منارات للنَّشر والتَّوزيع، 1985.
7. الشَّخصيَّة والقيمة والأسلوب، دراسة في أدب سميرة عزَّام، ط1، دمشق، 1988.
8. حطِّين – دراسة -، ط1، دمشق، 1987.
9. فلسطين في التَّاريخ القديم – دراسة، ط1، دمشق، 1989.
10. ابن الفارض - دراسة، ط1، دمشق، 1994.
11. مقدِّمة للنّفري- دراسة في فكر وتصوف محمد بن عبد الجبَّار النّفري- دمشق، 1997.
12. القيمة والمعيار، دراسة، دار كنعان، ط1، دمشق، 2000.
13. الخيال والحرِّيَّة، دراسة، ط1، دار كنعان: دمشق، 2001.
14. مقال في الرِّواية، ط1، دار كنعان: دمشق، 2002.
15. الشِّعر والحساسيَّة، اتِّحاد الكتَّاب العرب، ط1، دمشق، 2010.
16. الأسلوب والأدب والقيمة، وزارة الثَّقافة، ط1، دمشق، 2011.
17. في البدء كان المكان، رواية، اتِّحاد الكتَّاب العرب، دمشق، ط1، 2011.

18. تلك الأيَّام/ سيرة ذاتيَّة في 3 أجزاء، دار كنعان، دمشق، 2005. صدر منها اثنان.

وترجم عن الإنجليزيَّة:

19. الدِّيانة الفرعونيَّة، للسِّير ولس بدج، دار منارات، عمَّان، ط1، 1985.

20. ت. س. إليوت دراسة وترجمة لمختارات من شعره، ط1، دار منارات للنَّشر والتَّوزيع: عمَّان، 1986.

اليوسف ناقدًا

من بين المؤلَّفات الَّتي تركها اليوسف مؤلَّفات عن الأدب القديم، وهي مصنَّفات لا يطغى عليها الطابع التَّاريخي الَّذي يوحي به العنوان، أو يظنُّ أنَّه يوحي به، فمقالات في الشِّعر الجاهلي، وبحوث في المعلَّقات، والغزل العذري، عناوين قد يظنُّ القارئ، من الوهلة الأولى، أنَّها تعرض للأدب في عصر تاريخي معيَّن، بيد أنَّ هٰذا الانطباع سرعان ما يتبدَّد حالما نبدأ بقراءة أيٍّ من هٰذه الكتب. فهي دراسات تقوم على بناء رؤية جديدة لهٰذا الشِّعر، سواء أكان جاهليًّا أو إسلاميًّا، رثاءً أو غزلًا عذريًّا أو غير عذري. فلم يهتمّ اليوسف بترتيب الشُّعراء في طبقات وفقًا للزَّمن، ولا في طبقات وفقًا للتَّفاوت في غزارة الإنتاج، أو جودة النَّظم، ولٰكنَّه يطرح التَّساؤلات عن المقدِّمة الطَّلليَّة وعن توافر شعر الرِّثاء النِّسوي، وعن العوامل النَّفسيَّة الَّتي تؤدِّي إلى وفرة الحبِّ المكبوت في شعر العذريِّين، وعن غياب الدِّرامي وهيمنة الغنائي على لغة الشِّعر، وما فيه من موسيقا، وعن ولادة القصيدة وما فيها من وحدة أو تماسك داخلي. وهٰذه التَّساؤلات قد تمسُّ الجانب التَّاريخي ولٰكنَّها سرعان ما تبتعد عن التَّاريخ مقتربة من التَّحليل النَّقدي للخطاب الشِّعري لا للخطاب التَّاريخي أو المعرفي.

الشِّعر الجاهلي والمعلَّقات

ففيما يختصُّ بالشِّعر القديم تحسن الإشارة لمن تأثَّر بهم اليوسف في دراساته المتكرِّرة، فقد أفاد مثلما يذكر من محاضرة المستشرق الألماني فالتر براونه حول ما توحي به المقدِّمات الطَّلليَّة في ذلك الشِّعر من قلق وجودي عبَّر عنه الشُّعراء الجاهليُّون خاصَّة. وتأثَّر أيضًا بما تردَّد في مقالة كتبها د. عزُّ الدِّين إسماعيل عن تلك المقدِّمات نشرت في مجلَّة شعر المصريَّة في العام 1968، وما جاء في دراسات بعض الأكاديميِّين المتخصِّصين في الأدب القديم، ومنهم الدُّكتور يوسف خليف صاحب كتاب الشُّعراء الصَّعاليك، ود. حسين عطوان مصنِّف الكتاب الموسوم بعنوان "المقدِّمة الطَّلليَّة في القصيدة الجاهليَّة". وتردَّد في ذهنه موقف الأديب طه حسين المنكر لصحَّة الكثير من الشِّعر الجاهلي ذاهبًا في ذلك مذهب المستشرقين: بلاشير، ومرجوليوث. وفي الوقت ذاته جمع إلى ردود فعله تجاه هذه الآراء مزيدًا من التَّأثُّر بعلم النَّفس الأدبي وبآراء فرويد Freud حول الوعي، واللَّا وعي، واللّبيدو، والرَّغبات المكبوتة، والتَّنفيس، وبعض ما تأثَّر به من باب علم الأناسة، أو الأنثروبولوجيا Anthropology، وما يتناقله الدَّارسون عن تأثير المعتقدات الدِّينيَّة سواء أكانت وثنيَّة، أو أسطوريَّة، أو من نتاج العادات والتَّقاليد، والطُّقوس المتَّبعة في الحياة العقليَّة، والأدبيَّة للبشر ومنها الشِّعر، فهذا كلُّه يشكِّل المنطلقات الفكريَّة والذهنيَّة الَّتي تشكَّلت في أجوائها آراؤه حول الشِّعر القديم: المبكِّر منه، والمتأخِّر.

ففي منحى الذَّود عن صحَّة الشِّعر الجاهلي نجد لدى يوسف اليوسف الرُّدود الآتية على طه حسين ومن ذهب مذهب الارتياب في الشِّعر الجاهلي:

1. بما أنَّ طه حسين، كغيره، يسلِّم بأنَّ الشِّعر العربي الَّذي وصلنا من القرن السَّابع الميلادي – الثَّاني الهجري-شعر لا يرقي إليه أدنى شكّ، وهو شعر على جانب رفيع

من حيث الجزالة، ومتانة الأسلوب[1] فكيف يُتصوَّر أنَّ هٰذا الشِّعر ظهر فجأة، وكأنَّه طفرة ليس لها ما يسبقها من تجارب تناولها الشُّعراء بالتَّثقيف والصَّقل والتَّهذيب؟ ومن هنا لا بدَّ من القول: إنَّ هٰذا الشِّعر، في أسوأ الأحوال، امتداد طبيعيٌّ لمحاولات ظهرت في القرن السَّادس الميلادي، وربَّما في القرن الخامس.

2. يزعم كلٌّ من بلاشير، ومرجوليث – ومن شايعهم، كطٰه حسين، أنَّ الرُّواة الَّذين نظموا هٰذا الشِّعر كخلف الأحمر، وحمَّاد الرَّاوية، عاشوا في عصر يختلف عن العصر الجاهلي. ويصعبُ، إن لم يكن من المستحيل، على ناظم يعيش في عصر أن ينظم قصيدة تعبِّر عن الحياة في عصر آخر دون أن تتضمَّن ما يشي بالعصر الَّذي نظمت فيه.

3. ويغالي النَّاقد اليوسف في ذوده هٰذا عن الشِّعر الجاهلي مغالاة شديدة؛ فهو يعلِّق على رأي بلاشير، فيما رواه أبو علي القالي عن شيخه ابن دريد، من أنَّ خلفًا الأحمر هو واضع اللَّامية المنسوبة للَّشنفرى، قائلًا: برْهَنَ بلاشير حين قبل تلك الدَّعوى الَّتي أثارها القالي في أماليه أنه يفتقر إلى العقل التَّحليلي"[2]. ففي رأي اليوسف لا يعدو ما رواه القالي-ها هنا -الطَّعن على رواية خلف الأحمر، وإلَّا ما الَّذي يمنع ابن سلَّام من الإشارة لذٰلك في طبقات فحول الشُّعراء؟[3]

4. ويحتجُّ اليوسف حجَّة أخرى في ذوده عن الشِّعر الجاهلي، وهي تكرار كلمة "الشِّعر" و "الشُّعراء " و "الشَّاعر " إلخ.. ستَّ مرَّات في القرآن الكريم[4] وهٰذا يثبتُ، بما لا يدع مجالًا للشَّكِّ، أنَّ في عصر النبوة ظاهرة كبرى تلفت النَّظر وهي

---

1 - مقالات في الشِّعر الجاهلي، ص87.

2 - م. س. ص 88.

3 - مقالات في الشِّعر الجاهلي، ص89.

4 - م. س. ص 89-90.

ظاهرة الشِّعر، ولا بدَّ أنَّ هٰذا الشِّعر كان ذائعًا متداولًا، يعرفه القاصي والدَّاني، وإلَّا لما قال المشركون عن القرآن إنَّه شعر، ولما نفى آخرون عنه صفة الشِّعر، ولما قال بعضهم عن النَّبي (ص) "شاعر مجنون " و "شاعرٌ نتربّصُ بهِ رَيْبَ المَنون" فحضور الشِّعر في القرآن الكريم بهٰذه الكثافة يؤكِّد أنَّ الشِّعر الجاهلي الَّذي وصل إلينا هو شعر جاهليٌّ، وغير منحول، ولا زائف.

المقدِّمة الطَّلليَّة:

وأمَّا عن المقدِّمات الطَّلليَّة في القصيدة فقد ردَّ اليوسف على ما قيل في هٰذا الشَّأن بنقاط ثلاث، نجملها فيما يأتي:

1. تعزى هٰذه المقدِّمة لما يعرف بانعدام الاستقرار والتَّهدُّم الحضاري الَّذي عرفته الجزيرة العربيَّة في طور من أطوارها الجيولوجيَّة فقدتْ فيه ما كانت تتمتَّع به من خصب.
2. وتعزى أيضًا إلى ضرورة أملتها المعتقدات، والتَّقاليد السَّائدة، وهي إنكار ما يدعو إليه الدَّافع الجنسي من إشباع، والميل إلى اختزان الرَّغبات الجنسيَّة في لا وعي الشَّاعر ممَّا أدَّى إلى التَّعبير عن ذٰلك في المقدِّمات الطَّلليَّة الَّتي تمثِّل في رأيه ضربًا من التَّعبير غير المباشر عن نزعة التَّمسُّك بالبقاء في وجه الفناء والموت.
3. وأخيرًا، لا بدَّ من التَّنبيه على نقطة أخرى، وهي شظف الطَّبيعة وقسوة الصَّحراء القاحلة المُمحلة، وشحُّ المطر، وقسوة الرِّيح العاتية الصَّرصر، فقد لاحظ الشُّعراء الجاهليُّون أثر هٰذا كلَّه في المكان، والإنسان، فوجدوا في تلك المقدِّمة موقفًا تعبيريًّا عن هٰذا كلِّه.

وقد عرض اليوسف لثلاث مقدِّمات عرضًا سعى فيه لتثبيت هٰذه الفكرة، وترسيخ هٰذه المقولات، مؤكِّدًا أنَّ تلقائيَّة الشَّاعر القديم، وعفويَّة موقفه الشِّعري قاداه إلى ابتكار هٰذه المقدِّمة الَّتي أصبحت تقليدًا أدبيًّا ينبغي على الشَّاعر الالتزام به.

وقد تناول اليوسف اللّامية المعروفة بلاميَّة العرب للشَّنفرى.[1] مستعملًا في قراءته النَّقديَّة لها مفردات مستقاة من علم النَّفس الأدبي، كالنُّكوص، والتَّفريغ، والتَّنفيس، والاغتراب. فالشَّنفرى في رأيه يعاني من شعوره القوي باللَّا انتماء outsider وهٰذا الشُّعور-مثلما يقال في علم النَّفس -يؤدِّي إلى التَّمرُّد، والانشقاق عن المجتمع (القبيلة) والانتساب لمجتمع آخر، قد يكون مصطنعًا على النَّحو الَّذي يتجلَّى في القصيدة؛ فقد انتمى الشَّنفرى لعالم الذِّئاب والوحوش والصَّعاليك. ولم يفته أنْ يولي موضوع الرِّثاء في الشِّعر الجاهلي بعض عنايته، واهتمامه، وجهده القائم على تحليل النَّصِّ الشِّعري، كاشفًا به عن النَّسق الثَّقافي المضمر خلف قشرة الخطاب الأدبي.

فمن آرائه الَّتي تستحقُّ التَّنويه - في هٰذا المقام - ما تراءى له من أنَّ الرِّثاء، وهو موضوع ندْبٍ، اقتصر في الجاهليَّة على الشَّاعرات دون الشُّعراء من الرِّجال إلَّا في القليل، فمقابل سبعين مرثية جاهليَّة للشَّاعرات لا يوجد إلَّا بضع مراثٍ لشعراء، وهٰذا يعني أنَّ النُّواح والنَّدب وبكاء الميت – فيما يبدو- من الوظائف الَّتي نيطت بالنِّساء وحدهنَّ. وثمَّة ملاحظة أخرى ينفرد بها اليوسف عن غيره، وهي أنَّ المراثي اقتصرت على من يقتلون اغتيالًا، أو في الحرب، خلافًا لمن يتوفَّى حتف أنفه. وهٰذه ملاحظة جديرة بالتَّقدير، وإثارة التَّساؤلات. فهل كانت المرأة الجاهليَّة تخشى مصيرًا كمصير إلكترا في الأسطورة الإغريقيَّة، ولذٰلك أسرفت في رثاء الأخ الفارس الَّذي يحمى النِّساء، ويصون أعراضهنَّ، ويقيهنَّ عار السَّبي؟ سؤال يقود اليوسف إلى التَّفسير الجامع بين الأسطوري والأنثروبولوجي والنَّفسي. وهو في هٰذا يتوخَّى التَّغريد خارج السِّرب، متأبِّيًا على مقولة التَّكرار، واجترار ما يذهب إليه الآخرون.

[1] - مقالات في الشِّعر الجاهلي من 209-293.

وما طرحه اليوسف في بحوثه الَّتي تناول فيها المعلَّقات والشِّعر الجاهلي الموغل في القدم، لا يفتأ يتفتَّق عن كلِّ جديد، فقد وازن بين شعر العشق العربي وشعر التُّوربادور الَّذي طغى على الغزل في الشِّعر الأوروبِّي خلال العصور الوسطى. وهو موضوع غير بعيد عن موضوع آخر توقَّف عنده النَّاقد اليوسف وهو شعر الغزل العذري.

الحبُّ المَمْنوع

يمزج النَّاقد اليوسف في تتبُّعه الدَّقيق لظاهرة الغزل العذري بين مداخل شتَّى في قراءة النَّص، أوَّلها: المدخل النَّفسي، وثانيها: الثَّقافي، وثالثها الأنثروبولوجي، شأنه في هٰذا شأنه في الوقوف عند الشِّعر الجاهلي والمعلَّقات. ولا يفوته أن يراعي البعد السُّوسيولوجي؛ فالتَّحوُّلات الاجتماعيَّة الَّتي شهدها نشوء الدَّولة الأمويَّة زمن عبد الملك بن مروان (65- 86هـ)، لا تخلو من أن يكون لها تأثيرها الحاسم في اختيارات الشَّاعر كغيره من مثقَّفي العصر وفنَّانيه. فقيام دولة على أساس وراثي حَدا بالشُّعراء إلى التَّخلِّي عمَّا كانوا عاهدوا الله عليه في صدر الإسلام، وفي سنوات الفتوحات. فأصبح الشَّاعر في المجتمع الجديد مشغولًا بنفسه، مستعدًّا للتَّوجُّه نحو عالمه الدَّاخلي، وهٰذا ما لم يتأتَّ له في الماضي.

وبما أنَّ حبَّ الأنا هو الأصل الَّذي يتفرَّع منه كل حبٍّ على رأي فرويد، فقد كان انشغال الشَّاعر بنفسه سببًا لولادة الحبِّ بالمعنى الإيروتيكي. وبما أنَّ المجتمع لأسباب تتعلَّق بالمعتقدات الدِّينيَّة، والعادات الاجتماعيَّة، لا يسمح في الحدود المعمول بها بإشباع الدَّافع الجنسي (الإيروتيكي) فقد وجد الشَّاعر نفسه، وهو الَّذي يمتلك حساسيَّة فائقة نحو الجمال الأنثوي، مضطرًّا لحجب هٰذا الميل، ومنعه من الظُّهور علنًا، فبسبب ذٰلك مرَّ الشُّعراء بحالات من الإحباط الشَّبقي نتج عنه التَّعبير الَّذي تتجلَّى فيه ثيمات خاصَّة تميِّزه عن الغزل غير العذري، ومن ذٰلك:

1. الإسراف في التَّخييل.
2. شيوع ظاهرة الطَّيف.
3. المغالاة في الحنين إلى الماضي بما فيه من ذكريات وأماكن.
4. كثرة التَّأسِّي بالحمام وسجعه.
5. تكرار الإشارة إلى العذول والرَّقيب والرَّسول (رسول الحبّ).
6. غلبة الإحساس بالقهر على الشَّاعر إحساسًا يبلغ حدَّ الفاجعة.

وبصورة لا تقبل الشَّكَّ يهيمن على اليوسف في هٰذا الجانب النَّقد السِّيكولوجي، الَّذي تشهد عليه تلك المفاهيم المتكرِّرَة في الدِّراسة، ومنها: اللِّبيدو Libido، واللَّا وعي الفردي، والوعي الجمعي، والطَّاقة النَّفسيَّة، والأمُّ البديلة للأمِّ الحقيقيَّة، والإشباع الزَّائف. بيد أنَّ هٰذا لا يعني التَّخلِّي عن المداخل النَّقديَّة الأخرى، فقد ورد في الكتاب حديث مستفيض عن المعادل الموضوعي objective correlative، وهو مفهوم مرتبط بالشَّاعر النَّاقد ت. س. إليوت Eliot. وفي حضور الموقف الإيروتيكي لم يهمل النَّاقد البعد الشَّكلي، فخصَّص فصلًا من الكتاب للُّغة العذريَّة. وفي هٰذا يلقي الضَّوء على ما ينماز به شعر العذريِّين من مفردات مشحونة بلغة الوَجَع العشقي. فضلًا عن "الخيال الوجداني" وما في شعرهم من مجازات، وموسيقا تضفي على شعرهم مزيدًا من الحيويَّة، والطَّراوة، أو النَّداوة، والسَّلاسة والوحدة. فالشِّعر العذري - في رأي اليوسف - يتفوَّق على كلٍّ من شعر الغزل المعروف في الجاهليَّة، وعلى شعر التَّصوُّف، على الرَّغم من أنَّ شعراء التَّصوُّف المتأخِّرين أفادوا إفادات بارزة من الغزل العذري.

ولليوسف شغفٌ واضح بالمقارنات، ففي مقالات في الشِّعر الجاهلي لفت النَّظر بمقارناته بين الشِّعر الجاهلي، وشعر الحبِّ منه خاصَّة بشعر التُّوربادور، وهو لا يجد ما يمنع من مقارنة الشِّعر العذري والصُّوفي بالشِّعر الميتافيزيقي الغربي. والشَّيء ذاته

يدفع به للموازنة والمقارنة بين الشِّعر العذري والرُّومانسي الغربي، وهو في المجالين لا يفتأ يفضِّل الشِّعر العربي على غيره، والشَّيء اللَّافت في شعر العذريّين والشِّعر الميتافيزيقي أنَّ النَّموذجين موقفهما من الزَّمن موقف متعارض، فالعذريُّون يعتقدون أنَّه يقتل الحبَّ، في حين أنَّ الميتافيزيقيّين يعتقدون جازمين أنَّ الزَّمن يخلِّده. كذٰلك يشتركان في موقفهما من الفراق، فهو كالموت عند جون دون، وكاولي. وهٰذا لا يختلف عن موقف العذريّين من البين:

إنَّ يوم الفراق أصعبُ يوم — ليتني متُّ قبل يوم الفراقِ

أما الشَّيء المشترك الآخر بين العذريّين والرُّومانسيّين فهو حضور الرُّؤى والأطياف، والالتذاذ بالألم. فالشَّاعر الرُّومانسي كالعذري لا يملُّ الاحتراق في لهيب الحبِّ الَّذي يجدهُ سلامًا بردًا.

الشِّعر الحديث

ولليوسف آراء في الشِّعر العربي الحديث قد لا يشاطره فيها كثيرون، فهو في كتابه الشِّعر العربي المعاصر يؤكِّد أنَّ السَّيَّاب هو من فجَّر الشِّعر الحديث في الخمسينات، وقد تعاطف الجميع مع ثورته تلك. لٰكنَّ السَّيَّاب لو أعيدت قراءته مرَّة أخرى فقد لا يحظى بالإعجاب الَّذي حظي به في حينه، وأدونيس يشدُّه شدًّا، ويأسرُهُ أسرًا، لٰكنَّ الجواهري -في رأيه- شاعر تقليدي جميل يعيش في غير عصره، إنَّه يعيش بشعره عصر المتنبِّي، إنَّ للغة المتنبِّي أثرًا ساطعًا في شعره، كأنَّه تتلمذ له، ونظم الشِّعر على يديه. ولا يمكن أن يوصف بالمجدِّد كالسَّيَّاب، أو أدونيس. والسَّيَّاب-مرَّة أخرى-جدَّد الشِّعر لٰكن تجديده اقتصر على السَّطح، ولم يبلغ العمق، وأدونيس لا يختلف عن السَّيَّاب من هٰذه النَّاحية، فتجديده هو الآخر مسطَّح. واكتفى بلعبة الشَّكل لا أكثر، ولا أقلّ؛ فالشِّعر العظيم محتاج إلى المحتوى الحارّ، وأدونيس لم يقدِّم مثل هٰذا

المحتوى الَّذي يصلُ، ويتغلغلُ، في سويداء القلب. واليوسف يخشى على محمود درويش، ويتوقَّع له، مصيرًا كمصير أحمد شوقي. فشوقي شاعر احترمه جيله، أيَّما احترام، ونسيته الأجيال الأخرى. وأخشى أن يأفل نجم درويش وينطفئ ذات يوم، لأنَّه أيضًا يكتفي بلعبة الشَّكل، والشَّكل وَحْده مغامرة.

السِّيرة

أمَّا سيرته الَّتي وسمها بعنوان (تلك الأيَّام) وجاءت في أجزاء تجعل من حياته أربع مراحل ومحطَّات، ففي الجزء الأوَّل يتناول المرحلة الممتدَّة من ولادته 1938 حتَّى سنة النَّكبة 1948، والثَّاني من 1948 حتَّى 1975، والثَّالث من 1975 حتَّى 2007، ويتناول الرَّابع الفترة الأخيرة من حياته. ونتوقَّف هنا عند ملامح، ومحطَّات، من المرحلة الأولى من السِّيرة الَّتي حرص فيها على استظهار «جوهر» المشروع الصُّهيوني، وطبيعته الاستعماريَّة، من خلال سيرة قرية فلسطينيَّة صغيرة، هي قريته لوبية الَّتي ولد فيها، والَّتي رأى بيوتها تتهاوى بيتًا إثر الآخر، لتتحوَّل إلى حطام، بعدما عاركَتْهم طوال بضعة أشهر. ولكي تصان تلك الصُّورة لا بدَّ من عرض الكثير من التَّفاصيل ذات الصِّلة بالموقع والأرض المحيطة والبناء والعادات الاجتماعيَّة.. وسواها.. وذٰلك ما نجده على وجه التَّفصيل لا الإجمال. فهي سيرة الطِّفل الَّذي يفتح عينيه على قرية وادعة وجميلة حدَّ السِّحر، لٰكنَّه ما يكاد يبلغ العاشرة من عمره حتَّى يجد نفسه منفيًّا في الشَّتات اللُّبناني أوَّلًا ثمَّ السُّوري.. وكتاب اليوسف هٰذا، كغيره من سير النَّكبة الفلسطينيَّة لم تبدأ بالعام 1948، ولا بالخامس عشر من أيَّار من ذٰلك العام، بل كانت لهٰذه النَّكبة بدايات وتحضيرات منذ القرن التَّاسع عشر، بدأت بالهجرة «الخجولة»، إن جاز القول، لليهود إلى فلسطين، والاستضافة الطَّيِّبة من حكومة الانتداب لهٰذه الموجات الَّتي سرعان ما راحت تتحوَّل مع مؤتمر 1897 إلى مخطَّطات عدوانيَّة، فتحوَّل اليهودي الضَّيف وجار الفلسطيني، وشريكه في بيته، وحقله، تحوَّل

إلى مشروع عدوٍّ يخطِّط للاغتصاب، والقتل، والتَّهجير، مشروع تصاعدت فصوله منذ العشرينات من القرن العشرين، وصولًا إلى النَّكبة الَّتي كشفت عن الوجه القبيح للصُّهيونيَّة. لقد كتب الكثير حول هٰذه المرحلة، وعن المخطَّطات في الأطر السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والعسكريَّة، لٰكن قلَّة من الكتَّاب الفلسطينيِّين هم الَّذين كتبوا عن هٰذه المرحلة من منطلقات تجمع الشَّخصيَّ والوطني، وتجمع السِّياسي والاجتماعي والاقتصادي والثَّقافي، ومن بين هٰذه القلَّة يوسف سامي اليوسف صاحب هٰذه السِّيرة.

نظريَّة الأدب

يشير يوسف اليوسف على غلاف كتابه "الخيال والحريَّة" إلى غايته من تأليف الكتاب، فغايته أن يقدِّم فيه مساهمة في نظريَّة الأدب، منطلقًا في ذٰلك من تقريره الحقيقة الآتية، وهي أنَّ الحياة الحديثة بسبب ما يهيمن عليها من عقلانيَّة تقود إلى طغيان التِّكنولوجيا، ونضوب الجانب الرُّوحي من الإنسان، تدفع بالفنَّانين والشُّعراء تبعًا لذٰلك إلى العودة لعوالم الخرافة والحكاية الشَّعبيَّة والرُّومانسيَّة والتَّصوُّف والأساطير[1] فهم بذٰلك يحاولون عن طريق الخيال الخلَّاق أن يحافظوا على ما تبقَّى من الجانب الروحي والوجداني في الإنسان، فالعقل وحده لا يكفي مثلما أنَّ الخيال وحده لا يكفي.[2] ولا بدَّ من الاستعانة بقدرة الخيال على التَّصوُّر لتحقيق الأعمال الخالدة في الأدب والفنِّ. فالعقل يتنحَّى جانبًا عندما يتعلَّق الأمر بالتَّعبير، والتَّاريخ يؤيِّد هٰذا، فالعقل جاء وليد التَّجارب والخبرة الَّتي اكتسبها الإنسان جيلًا تلو آخر، لٰكنَّ الخيال فطري، ولهٰذا فهو أقدر على رسم الصُّور المعبِّرة عن المشاعر

---

[1] - اليوسف: الخيال والحريَّة ص 24.

[2] - اليوسف، الخيال والحريَّة ص 18.

والإحساسات. ويذكر اليوسف مثالًا يؤكِّد فيه سلامة هٰذا التَّوجُّه، فالأهرامات مثلًا أقامها مهندسون وبنَّاءون استعانوا بمعارفهم العقليَّة، والتِّكنولوجيَّة، المتوافرة في ذٰلك الزَّمان، بَيْد أنَّ الشُّعور والخيال الوجداني هو الَّذي صمَّم على إقامة مثل تلك الآثار الخالدة، فلو لم يكن لدى هٰؤلاء المصريِّين تلك الأفكار عن الحياة والموت، والعالم الآخر، الَّذي يملأ وجدانهم بالكثير الجمِّ من التَّصوُّرات، لما فكَّروا بإقامة مثل تلك الآثار الكبيرة. فالخيال إذًا أحد الأسس الَّتي لا غنى عنها في العمل الفنِّي. والخيال هو الَّذي يحرر الفنَّان، والشَّاعر، من قيود الحياة اليوميَّة المُضْجرة، وهٰذا ما يؤكِّدُه اليوسف ويكرِّره، قائلًا: في الخيال حرِّيَّة، وفي الحرِّيَّة خيال.(1)

وقد تتبَّع اليوسف في فصول الكتاب آراء كثير من الفنَّانين، والفلاسفة، والنُّقَّاد، من أمثال الجرجاني وكولردج وشيللِّي، ووليم بليك، وبركلي، وأدغار آلان بو Poe، ومالارميه، وغاستون باشلار، ليؤكِّد من خلال أقوالهم: أنَّ الخيال هو الَّذي يغذِّي قدرات المبدع على إنتاج الرُّسوم، والأشكال، والصُّور، الَّتي يتميَّز بها الخطاب الأدبي عن غيره. ولٰكنَّ الخيال وحده أيضًا لا يُجدي إذ لا بدَّ من الوجدان لكي يهبَ الحياة للنَّصِّ الأدبي.(2) فالإبداع - تبعًا لذٰلك - لا بدَّ فيه من تضافر القدرة التَّخييليَّة، والطَّاقة الوجدانيَّة، في الوقت ذاته، وفي فاعليَّة واحدة يتوازى فيها الأمران ويتساويان. ومؤازرة الخيال للشُّعور في الأثر الإبداعي يمكِّن المبدع من اختراق الأطر الخارجيَّة للتَّجربة، والتَّعبير عنها من الدَّاخل تعبيرًا يخاطب القلبَ، ويُسْكرُ الرُّوح. وما ينطبع به العمل في هٰذا المستوى، يجيز لليوسف الاستخفاف بما يقال عن الأدب الواقعي، والأدب التَّعليمي، والأدب النَّافع، والمعاني النَّحويَّة وغير النَّحويَّة، ويستخفُّ بقوْل من قال: المعاني مطروحة في الطَّريق. فبالوجدان، والخيال، والشُّعور القوي،

[1] - اليوسف، الخيال والحرِّيَّة ص 25.

[2] - السَّابق. ص 40.

والحساسيَّة المفرطة، ما يتيح للمبدع شاعرًا وفنانًّا أن يحيل المعنى المطروح إلى معنىً غير مطروح، ولا مألوف، ومن هنا تأتي دهشة القارئ، وتأثُّره بما يقرأ، لا من المعنى، ولا من الشَّكل وحده.

هٰذه إشارات موجزة لبعض ما تركه يوسف سامي اليوسف من مؤلَّفات تشفُّ عن روح وثَّابة تأبى الحديث في العادي، والمتكرِّر، والمألوف، وتسعى لما هو جديد، سواءٌ في النَّقد، أو في التَّاريخ، أو في كتابة السِّيرة، أو في نظريَّته عن الأدب، تسْعفُه في ذٰلك حساسيَّة أدبيَّة مرهفة، وثقافة عميقة واسعة، واطِّلاع على الأدب الغربي، وتضلُّعٌ في علم النَّفس، مع إلمام بوجوه من الأنثروبولجيا، فلا يخفى عليه أثر الأساطير والخيال في الأدب لا سيَّما الشِّعر، علاوة على تمرُّس لافت للنَّظر في التَّرْجمة، والاقتباس الدَّقيق من المصادر والمراجع الأجنبيَّة.

المراجع:

1. أبو شاور، رشاد. "يوسف اليوسف النَّاقد العصامي" **عرب 48**. تاريخ النَّشر 10 حزيران، يونيو 2013.
2. برقدار، فرج. "يوسف اليوسف أكثر من حياة واحدة" **العرب**. لندن، ع 9293، تاريخ 2013/8/18 ص11.
3. بسَّام، رجا. "غناء ليلتنا الأخيرة" **موقع الصَّفصاف**. safsaf.org تاريخ 23 مايو (أيَّار) 2013.
4. حمزة، حسين بن حمزة. "رعشة الغياب" **الأخبار**، بيروت، ع 1995، الجمعة، 3 أيَّار (مايو) 2013.
5. الخطيب، حسام. **النَّقد الأدبي في الوطن الفلسطيني والشَّتات**. ط1. بيروت: المؤسَّسة العربيَّة للدِّراسات والنَّشر، 1996.
6. خليل، إبراهيم. **نقَّاد الأدب في الأردن وفلسطين**. ط1. المؤسَّسة العربيَّة للدِّراسات والنَّشر: بيروت، 2003.
7. خليل، إبراهيم. "يوسف اليوسف ونقد الشِّعر القديم" **الدُّستور**. عمَّان، تاريخ النَّشر الجمعة 5 يوليو-تمُّوز 2013.
8. خليل، إبراهيم. "النَّاقد الفلسطيني يوسف اليوسف" **القدس العربي**. لندن، ع 21 أيَّار (مايو) 2013.
9. الحديدي، صبحي. "يوسف اليوسف يخضور فلسطين" **القدس العربي**. لندن، تاريخ النَّشر 6 أيَّار-مايو 2013.
10. الرَّجبي، سيف. "يوسف اليوسف الَّذي لا يليق به الرِّثاء النَّمطي" **نزوى**. مسقط، ع 75، يوليو-تمُّوز 2013 .

11. شاهين، أحمد عمر. **موسوعة كتّاب فلسطين في القرن العشرين**. ط1. د.م: دائرة الثّقافة. منظّمة التّحرير، 1991.

12. شبانة، عمر. "الرّاحل يوسف اليوسف. **الحياة**" لندن وبيروت، ع الأحد 5 أيّار (مايو) 2013.

13. صالح، فخري. "يوسف اليوسف ناقد ظلمته الجغرافيا" **الدُّستور**. عمّان، الثُّلاثاء، ع 7 أيّار – مايو 2013.

14. فرحان، مطر. "يوسف اليوسف في كتابه مقال في الرواية" **معابر** (موقع إلكتروني) دمشق، maaber@scs.net.org.

15. قنديل، عبدالله. "حوار مع الناقد يوسف اليوسف" **القدس للثقافة والتراث**، موقع إلكتروني، تاريخ النشر 2012/4/8.

16. لؤلؤة، عبد الواحد. **الأرض اليباب الشاعر والقصيدة**. ط3. بغداد: مكتبة التحرير، 1986.

17. اليوسف، يوسف. **مقالات في الشعر الجاهلي**. ط4. بيروت: دار الحقائق، 1987.

18. اليوسف، يوسف. **الغزل العذري**. ط1. دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 1978.

19. اليوسف، يوسف سامي. **الخيال والحرية**. ط3. دمشق: دار كنعان للنشر والتوزيع، 2003.

20. اليوسف، يوسف سامي. **تلك الأيام**. ط1. دمشق: دار كنعان للنشر والتوزيع، 2005.